

(المراجع) References

- Al-Asqalani, Ibn Hajar. (1986). *Lisan Al-Mizan*. Beirut, Lebanon : Muassasah Al-‘Alami li Al-Matbu’at.
- Al-Bukhari, M. I. (1987). *Al-Jami’ As-Sahih Al-Mukhtasar*. Mustafa Dib Al-Bugha (ed.). Beirut, Lebanon : Dar Al-Fikr.
- Al-Mazi, Y.Z. (1980). *Tahzib Al-Kamal*. Basyar Awad Am’ruf (ed.). Muassasah Ar-Risalah, Beirut, Lebanon.
- An-Nadim, M.I. (1978). *Al-Fihrisat*. Dar Al-Ma’rifah, Beirut, Lebanon.
- An-Nashar, A.S. (2008). *Nasya’ah Al-Fikr Al-Falsafi fi Al-Islam*. Dar Al-Salam, Cairo, Egypt.
- Al-Nisaburi, M.H. (n.d.). *Al-Jami’ As-Sahih*. Dar Al-Jail, Beirut, Lebanon.
- As-Subki, T.A. Al-Kafi. (1413H). *Tabaqat Al-Syafi’iyah Al-Kubra*. Mahmud Al-Tanaji & Abd Al-Fatah Al-Hilu (ed.). Dar Hijir Lit Tiba’ah wa An-Nasyar, n.pl.
- Az-Zahabi, M.M. Uthman. (1998). *Tazkirah Al-Huffaz*. Zakaria ‘Amirat (ed.). Dar Al-Kutub Al-Ilmiah, Beirut, Lebanon.
- Az-Zahabi, S.M. Ahmad. (1993). *Sir ‘Alam An-Nubalak*. Muassasah Ar-Risalah, Beirut, Lebanon.
- Az-Zarkali, Khairudin. (1980). *Al-’Alam*. Dar Al-’Ilm Al-Malayin, Beirut, Lebanon.
- Bardi, I.T. Al-Atabaki. (n.d). *An-Nujum Az-Zahirah*. Egypt: Wizarah As-Saqafah wal Irsyad Al-Qaumi.
- Dodge, Bayard (trans). (1970). *The Fihrisat of Al-Nadim: A Tenth-Century Survey of Muslim Culture*. New York & London : Columbia University Press.
- Ibn Abi Ya’la, M. M. (n.d). *Tabaqat Al-Hanabilah*. Muhamad Al-Faqi (ed.). Beirut, Lebanon : Dar Al-Ma’rifah.
- Ibn ‘Adi Al-Jurjani, A. A. Abdullah. (1988). *Al-Kamil fi Ad-Du’afak*. Yahya Mukhtar Ghazawi (ed.). Beirut, Lebanon : Dar Al-Fikr.
- Kahalalah, Umar Redha. (n.d.). *Mu’jam Al-Mualifin*. Beirut, Lebanon : Dar Ihyak At-Turath Al-‘Arabi.

Abd Rahman Obeid Hussien,
Fakulti Pengajian Al-Quran dan As-Sunnah
Universiti Sains Islam Malaysia
drabrahman@usim.edu.my

خاتمة البحث

ظهر لنا بعد بحث وتدقيق أن ابن النديم لم يكن شيعياً كما أظهرته كتب التراجم والرجال، وتحامله على أهل السنة وانتقاصه له كان من جهة اعتزاله، وهو تحامل تشهد له مؤلفات المعتزلة الكثيرة، ويمكن اختصار الدلائل التي تنفي تهمة التشيع عنه في الآتي :

طعنه في الإمام الشافعي وركوب الحمار ولبسه لباس المغنيين فذلك أمر في عهدة الرواة وذمتهم وابن النديم ناقل عن الثلجي، والثلجي من فقهاء وقضاة الأحناف وعهد عنه حنق الأحناف الكلاسيكي على الشافعي والشافعية، قال عنه ابن حجر: «الفقيه الحنفي البغدادي اتهمه بن عدي بالوضع وكان ينال من الشافعي وأحمد»، وابن النديم ناقل، ومن أسند فقد حمل.

أنصف السبكي ابن النديم في طبقاته، فلم ينسبه إلى التشيع، وإنما نسبه إلى الاعتزال وذلك في معرض ترجمته لابن القطان، وإقحام ابن النديم في جملة بابية الحشوية أبا الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة، وهو إقحام متعمد يظهر ابن النديم معتزلياً حتى النخاع، فهو لم يكتف بتسمية الأشعري والقطان بالحشوية بل سماهما بابية الحشوية، وفي هذا ما فيه من حنق ونقمة عليهما لاعتزالهما أولاً ثم لنكوصهما عن الاعتزال ومانفحتهما عن عقائد ما يسميه الحشوية.

استعماله للفظتي الخاصة والعامة واضح جلي، ومثل ذلك ورد في ترجمته لأبي النضر محمّد العياشي، إلا أن هذا الاستخدام كان معروفاً عند المعتزلة، والشواهد الكثيرة تشير إلى اعتزال ابن النديم لا تشيعه. توثيق ابن النديم للواقدي وغيره لا يعني رضاه عن تشيعه، فابن النديم يميز بين غلاة الشيعة الذين يسميهم رافضة وبين المعتدلين منهم، وثمة فرق بين التوثيق وبين تمييز الرافضي من المعتدل.

طعن ابن النديم في محمّد بن اسحق مدّع بتجريح الإمام مالك وهشام بن عروة له، وربما تأثر ابن النديم بمقولة الإمام مالك، خاصة وأنه كان يكن له احتراماً عميقاً. ثمة عبارات هي أشبه أن تكون عبارات لابن النديم نفسه تشير بوضوح كبير إلى سمة تهجيل رموز سنّة بله التعالي عن الاستخفاف بها. ومسموعات ابن النديم الحديثية من طريق أهل السنّة ولا تنتهي بإمام من أئمة أهل البيت كما هو المعهود في الأحاديث المعتمدة عند الإمامية، بل تنحى منحى روايات أهل السنّة.

ويثني على الطبري، وهو إمام من أئمة السنّة، ويصف تفسيره بأنه: "لم يعمل أحسن منه، وقد اختصره جماعة..." (Ibn An-Nadim, 1978)، ولم يذكر ابن النّديم أحمد بن حنبل في طبقات الفقهاء، بل ذكره في طبقات المحدثين، وربما تابع في ذلك الطبري، والملفت للنظر أنه يمدح عبد الله بن أحمد بن حنبل، ويقول: "ثقة، يسمع منه الحديث" (Ibn An-Nadim, 1978)، ولا يخفى أن طريقة التوثيق هذه توثيق سني، وفي ذلك العصر بالذات حيث لم يظهر إلى الوجود بعد علم مصطلح الحديث عند الشيعة، إذ ينقسم علماء الشيعة في موقفهم من نقد الروايات إلى مدرستين: مدرسة الأخباريين التي تدور أحاديثها في فلك الكتب الأربعة: الكافي للكليني (329هـ)، وكتاب "من لا يحضره الفقيه" لابن بابويه القمي (381هـ)، وكتابي شيخ الطائفة الطوسي (460هـ): التهذيب، والاستبصار، وهي كتب معتمدة وقطعية عندهم؛ ومدرسة الأصوليين التي ظهرت في أواخر القرن السابع الهجري، وبدأت بنقد الكتب الأربعة واتهمها الأخباريون بتقليد أهل السنّة في مصطلح الحديث ونقده، وأبرز رموز هذه المدرسة: أحمد بن طاووس (673هـ)، والعاملي (965هـ) (ديميريل، 2005م). ونلاحظ هذه التوثيقات في مواضع متعددة من الفهرست، فأبو سعيد الاصطنحري، حسب تعبير ابن النّديم، كان «ثقة مستوراً وفتياً مقدماً» (Ibn An-Nadim, 1978)، وإبراهيم الحربي من «جلة المحدثين العارفين بالحديث، وكان عالماً ورعاً عارفاً باللغة» (Ibn An-Nadim, 1978)، والأخطر من ذلك هو حديثه عن البخاري، الخضم الألد للشيعة، ووصفه له بأنه: "من علماء المحدثين الثقات" (Ibn An-Nadim, 1978)، ويبيد ابن النّديم إعجاباً كبيراً بأبي داود السجستاني فهو: "من جلة المحدثين، وفقائهم ثقة" (Ibn An-Nadim, 1978). وهذه المقتطفات تدل دلالة واضحة على أمرين: إجلال ابن النّديم للمحدثين السنّة وهو أمر غير معهود عن الشيعة، والأمر الثاني، وهو الأهم في نظرنا، اتباعه طريقة سنية في التوثيق ونقد الرجال.

وهل يمكن لشيعة إلا أن يكون حانقاً على الخوارج؟ في حين أن ابن النّديم يخصص لهم الفن الثامن من المقالة السادسة تحت عنوان "فقهاء الشراة"، وهو اللقب الذي يطرب له الخوارج! (Ibn An-Nadim, 1978)

ويتعالى ابن النّديم كذلك على التعصب العرقي، فذكر أخبار إعلان الشعبي، أو غيلان كما رود في بعض الكتب، المعروف بحقده على العرب وكتاباته المثيرة عن مثابهم قبيلة قبيلة، وبتناً بتناً، فتحدث عنه بسماحة العالم ورحابة المفكر، قال فيه: "وهو إعلان الشعبي، أصله من الفرس، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات" (Ibn An-Nadim, 1978)، ثم شرع في ذكر مصنفاته.

تناؤه على الصحابة وعلماء أهل السنة

ثمّة عبارات هي أشبه أن تكون عبارات لابن النديم نفسه تشير بوضوح كبير إلى سمة تبجيل رموز سنّة بله التعالي عن الاستخفاف بها، ففي حديثه المطول عن الحارث المدائني ذكر شيئاً من مؤلفات المدائني في أخبار الخلفاء، ومنها: "كتاب أخبار الخلفاء الكبير، ويحتوي على أخبار أبي بكر، عمر، عثمان، علي عليهم السلام!!" (Ibn An-Nadim, 1978)، والعبارة الأخيرة تبدو من كلامه لا من كلام المدائني، وأوضح من ذلك حديثه عن مؤلفات أبي الحسن المدائني، حيث قال: ومن كتبه: حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه! (Ibn An-Nadim, 1978) ولو سلمنا أن عبارة الترضي من المدائني لكفى ابن النديم حسن خلق منه إبقاؤها على ما هي عليه!؛ ومثل ذلك بدر منه أثناء حديثه عن الإمام مالك، فقال: وله من الكتب كتاب الموطأ كتاب رسالته إلى الرشيد رواها أبو بكر بن عبد العزيز من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (Ibn An-Nadim, 1978)؛ ولو كان من الشيعة لانتسب إليهم ولما نفى نفسه من جماعتهم، فقد قال عن ابن المعلم: ابن المعلم أبو عبد الله في عصرنا انتهت رياسة متكلمي الشيعة إليه، مقدم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه دقيق الفطنة ماضي الخاطر شاهدته فرأيته بارعاً! (Ibn An-Nadim, 1978)، ولو عدّ نفسه منهم لقال: مقدم في صناعة الكلام على مذهب أصحابنا!!

وأثناء حديثه عن شيطان الطاق أبي جعفر الأحول - وهو أحد رموز الشيعة الأوائل - قال: "ويلقبه الشيعة بمؤمن الطاق من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد رضي الله عنه، وكان متكلماً حاذقاً، وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم" (Ibn An-Nadim, 1978)، والعبارة الأخيرة، عبارة الترضي عن طلحة والزبير والسيدة عائشة، تبدو كذلك من كلام ابن النديم إذ لا يعقل ورودها عن شيطان الطاق الذي لم يأل جهداً في النيل من تلك الرموز.

ومسموعات ابن النديم الحديثية من طريق أهل السنة ولا تنتهي بإمام من أئمة أهل البيت كما هو المعهود في الأحاديث المعتمدة عند الإمامية، بل تنحى منحى روايات أهل السنة، كما في حديثه عن جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق: قال محمد بن إسحق (يعني نفسه) حدثنا أبو الحسن محمد بن يوسف الناقط، قال حدثني يحيى بن محمد أبو القاسم، قال حدثنا سليمان بن داود الهاشمي، قال أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عبيد بن السلف أن زيد بن ثابت حدثه. (Ibn An-Nadim, 1978). وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في ثلاثة أبواب. (Hadith. Bukhari. #169)

الشيعة واستكملت بنائها العقدي والتشريعي بعد أن كانت فرقة سياسية، وظهر التمايز التام بين الشيعة وبين محبي آل البيت .

وكانت محبة آل البيت سابقاً قد تجر إلى ويلات وكوارث إذا رافقها اتهام بالتشيع كما حدث للإمام الشافعي، وهذه المحبة أوقعت ابن النديم نفسه في التباس فقال في ترجمته عن الشافعي: "وكان الشافعي شديداً في التشيع...". ويكون ابن النديم بحكمه هذا على الشافعي قد وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه من حكم عليه بالتشيع من بعد!!، وحقيقة هناك ثمة تشابه كبير بين (تشيع) الشافعي وتشيع ابن النديم، ويمكننا ملاحظة ذلك في الفهرست، فابن النديم عندما يذكر أهل البيت يردف ذلك بعبارة (عليه، عليهم السلام)، وهو أمر لا يؤخذ عليه وإن كان دلالة عند البعض على تشييعه، فمحبة أهل البيت اشترك فيه الشيعة والسنة خاصة في العراق، وأضحت مسألة مقبولة نوعاً حتى إذا صدرت من بعض العلماء المعتبرين كالشوكاني، وكان الزمخشري نفسه يكرر هذه اللاحقة تودداً إلى ابن وهاس العلوي الذي طالما مدَّ له يد العون دون أن يُدان بالتشيع بسببها، وكانت أوامر المحبة التي عقدت بينه وبين الأمير ابن وهاس نقيب آل البيت في مكة وإكرام الأمير له وراء شكره الدائم، وكذلك ذكره آل البيت في تفسيره مشفوعاً بـ: عليه السلام، يفعل ذلك إكراماً وتحبباً إلى الشريف العلوي، وحسب قوله فإنه ألف الكشاف بناء على رغبة الأمير سنة 526هـ وكان بينهما مجالس أنس ونقاش علمي جاد، وقد مدحه الزمخشري قائلاً: (Bardi,n.d)

لولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشمياً واستقيت مصردا

ويبدو أن ابن النديم كان ناقماً على السلطة العباسية بحكم انتمائه إلى طبقة التجار التي تضيق ذرعاً بتسلط الدولة وحجزها على نشاطهم التجاري طمعاً في مشاركتهم أرباحهم، ووجد في انتصاره لأهل البيت، وخاصة فرقة الزيدية الثائرة، متنفساً للتعبير عن سخطه وتبرمه. بل يبدو أن ابن النديم من الثائرين المتحمسين ضد فساد بني العباس إلى الدرجة التي يثني فيها على رمز من رموز الغليان والثورة، فهو يقول في ترجمته للحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: **الداعي إلى الله الإمام الناصر للحق**، ويخط عنوان (الداعي إلى الحق) لـ: الحسن بن زيد... بن الحسين بن علي. ويزعم أن أكثر المحدثين مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري على مذهب الزيدية في أن القول بإمامة زيد بن علي، ثم القول بالإمامة في ولد فاطمة كائناً من كان بعد زيد بن علي! (Ibn An-Nadim,1978)

حاتم: عظيم الغناء في الإسلام ثقة مأمون. وقيل إن الرشيد أخذ زنديقاً ليقتله فقال أين أنت من ألف حديث وضعتها؟ قال: فأين أنت يا عدو الله عن أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً. قال أبو داود الطيالسي: مات أبو إسحاق الفزاري وليس على وجه الأرض أفضل منه. وعن ابن عيينة قال: والله ما رأيت أحداً أقدمه على أبي إسحاق الفزاري: قال عطاء الخفاف: كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلي أبي إسحاق الفزاري فقال لكاتبه: ابدأ به فإنه والله خير مني“ (Az-Zahabi(b),1988).

ولعل ابن النديم خلط بينه وبين إبراهيم بن محمد بن الحارث التميمي فهو في جملة الضعفاء، قال عنه ابن عدي الجرجاني في الكامل: «إبراهيم بن محمد بن الحارث بن خالد التميمي ولم يكتب حديثه، يروي عنه موسى بن عبيدة ضعف لذلك. سمعت محمد بن أحمد بن حماد يقول إبراهيم بن محمد بن الحارث بن خالد التميمي ولم يثبت حديثه يروي عنه موسى بن عبيدة ضعف لذلك. قاله البخاري قال الشيخ وليس لإبراهيم بن محمد هذا عن موسى بن عبيدة وعن غيره إلا دون عشرة أحاديث» (الجرجاني، 1/263). فهذا التشابه في الأسماء يوهم من هم في طبقة ابن النديم ونظرائه ممن لم يشتغلوا بعلم الرجال، بل ثمة أشخاص آخرون غير الفزاري والتميمي يحملان الاسم نفسه، وهم: إبراهيم بن محمد بن الحارث الفارسي وإبراهيم بن محمد بن الحارث المكتب. (Al-Jurjani,1988)

دلالات نبذ التشيع

من هذا البيان ينجلي لنا صحة ما قاله ابن حجر عن اعتزال ابن النديم، وينجلي كذلك بطلان نسبته للتشيع، ولعل ابن حجر مؤاخذ أكثر من ياقوت لأن الثاني لا يرقى إلى مستوى ابن حجر في التحقيق ومعرفة علم الرجال وقوادح العدالة، وفاته أول ما فاته أن ابن النديم تتلمذ على إسماعيل الصفار المحدث الكبير الذي يصفه ابن حجر نفسه بأنه كان: «ثقة، إماماً، نحوياً مشهوراً»، وقال: وانتهى إليه علو الإسناد، روى عنه الدارقطني، وابن مندة، والحاكم، ووثقوه، وآخر من حدث عنه بجزء بن عرفة أبو الحسن بن مخلد عبد الرحمن، سمعنا من حديثه جملة بعلو. ولم يعرفه ابن حزم! فقال في المحلى إنه مجهول! وهذا هو رمز بن حزم، يلزم منه أن لا يقبل قوله في تجهيل من لم يطلع هو على حقيقة أمره، ومن عادة الأئمة أن يعبروا في مثل هذا بقولهم: لا نعرفه، أو لا نعرف حاله، وأما الحكم عليه بالجهالة بغير زائد فلا يقع إلا من مطلع عليه أو مجازف، بل يؤكد ابن حجر أن ابن النديم أخذ الحديث بالإجازة من الصفار (Al-Asqalani,1986). ومعروف من طبيعة العلاقة الاجتماعية التي صبغت الصلوات بين الشيعة والسنة أن كلا الطرفين كان يتحاشى أخذ العلم عن الآخر أو يتنكر لها في الفترة التي توضحت فيها معالم المدرسة

ولم يتعرض ابن النَّدِيم لإسحق بن بشير بتوثيق أو تجريح، إنما ذكر أبا إسحق بن بشير ووثقه، قال: "إبراهيم الحربي أبو إسحق إبراهيم بن إسحق بن إبراهيم بن بشير بن عبد الله من جلة المحدثين العارفين بالحديث وكان عالماً ورعاً عارفاً باللغة، وكان من الحفاظ، وتوفي إبراهيم سنة خمس وثمانين ومائتين، وله من الكتب كتاب غريب الحديث والذي خرج منه مسند أبي بكر مسند عمر مسند عثمان مسند علي . . مسند معاوية وغيره مسند عمرو بن العاص مسند عبد الله بن العباس مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب مسند الموالي، وهو آخر ما عمل وله بعد ذلك من الكتب كتاب الأدب، كتاب المغازي، كتاب التيمم" (Ibn An-Nadim, 1978)، وهو حقيقة ثقة كبير وإمام عظيم، قال عنه الذهبي: "ولد سنة ثمان وتسعين ومائة . . . وتفقه علي الإمام أحمد، فكان من جلة أصحابه . . . قال الخطيب: كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميّزاً لعلله، قيماً بالأدب، جماعاً للغة، صنف غريب الحديث، وكتباً كثيرة. أصله من مرو. قال القفطي: غريب الحديث له من أنفس الكتب وأكبرها". (Az-Zahabi(b), 1988)

وقد طعن ابن النَّدِيم فعلاً في محمّد بن إسحق صاحب السيرة فقال: "مطعون عليه غير مرضي الطريقة يحكى أن أمير المدينة رقى إليه أن محمّداً يغازل النساء فأمر بإحضاره وكانت له شعرة حسنة فوقف رأسه وضربه أسواطاً ونهاه عن الجلوس في موخر المسجد وكان حسن الوجه يروى عن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة فبلغ هشاماً ذلك فأنزكه وقال متى دخل إليها ومتى سمع منها، ويقال كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسئل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل! فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر، وأخطأ في النسب الذي أوردته في كتابه، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونهم" (Ibn An-Nadim, 1978)، وربما يشير ابن النَّدِيم إلى الإمام مالك بن أنس الذي حط من شأن محمّد بن إسحق هو وهشام بن عروة، كما أن ابن إسحق نال من نسب الإمام مالك وزعم أنه من موالى بني تيم بن مرة، فكانت بينهما وحشة، وربما تأثر ابن النَّدِيم بمقالة الإمام مالك، خاصة وأنه يكن له احتراماً عميقاً، إذ وصفه وصفاً لا يُرقى إليه في حسن الديباجة وكمال المدح، خاصة عبارته بعد أن ذكر أن جعفر بن سليمان جلده، فقال: "فلم يزل بعد ذلك في علو ورفعة، وكأما كانت تلك السياط حلياً عليه". (Ibn An-Nadim, 1978).

وجرح ابن النَّدِيم أبا إسحاق إبراهيم بن محمّد بن الحارث بن اسما بن خارجة الفزاري، فقال: « كان حراً فاضلاً، غير انه كان كثير الغلط في حديثه» (Ibn An-Nadim, 1978)، في حين أنه إمام ثقة ثقة!، قال الذهبي: "قال يحيى بن معين: ثقة . . . قال محمّد بن سعد: أبو إسحاق ثقة صاحب سنة وغزو. وقال أبو

توثيقات ابن النديم وتجرباته

تبقى مسألة توثيق ابن النديم للواقدي وغيره، وهي المسألة التي عدها ابن حجر في جملة ما عده من أدلة على تشيع ابن النديم، فأما الواقدي فإن ابن النديم لم يوثقه، وقال فيه بالحرف: "كان يتشيع حسن المذهب يلزم التقية، وهو الذي روى أن علياً عليه السلام كان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم كالعصا لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام، وغير ذلك من الأخبار» (Ibn An-Nadim, 1978)، وقوله (حسن المذهب) لا يعني رضاه عن تشيعه، فابن النديم يميز بين غلاة الشيعة الذين يسميهم رافضة وبين المعتدلين منهم، ففي الفن الثالث من مقالته الثالثة ذكر أبا العبر الهاشمي وأنه قُتل بقصر ابن هبيرة، فقال: "قتله قوم من الرافضة سمعوه يتناول علياً كرم الله وجهه، فرموا به من سطح كان بايتاً عليه فمات» (Ibn An-Nadim, 1978). وثمة فرق بين التوثيق وبين تمييز الرافضي من المعتدل، فالشيعة مذاهب وفرق وطبقات، الغلاة منهم يقدمون علياً على النبي صلى الله عليه وسلم، والواقدي جعله من معجزاته صلى الله عليه وسلم كما كانت العصا معجزة لموسى الكليم عليه السلام، ومن المعلوم أن الواقدي كان شيخاً محمّداً بن سعد، ولو كان فيه غلو في تشيعه لما لزمه صاحب الطبقات واستفاد منه.

وقد وثق ابن النديم محمّداً بن سعد كاتب الواقدي، فقال: "من أصحاب الواقدي، روى عنه وألف كتبه من تصنيفات الواقدي، وكان ثقة مستوراً عالماً بأخبار الصحابة والتابعين» (ابن النديم، ص 145)، ولو كان ابن النديم شيعياً لحمل حملة شعواء على ابن سعد وطعن فيه طعناً شديداً! وهذا التوثيق أكدّه جلة أهل التراجم، فقال الحافظ المزني في ترجمة محمّد بن سعد كاتب الواقدي: «كان من أهل العلم والفضل... قال الحافظ أبو بكر: ومحمّد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير من رواياته». (Al-Mazi, 1980)

وأما عبد المنعم بن إدريس، حفيد وهب بن منبه، فذاهب الحديث، قال عنه ابن عدي في الكامل: "سمعت بن حماد يقول، قال البخاري: عبد المنعم بن إدريس ذاهب الحديث. وعبد المنعم بن إدريس صاحب أخبار بني إسرائيل كوهب بن منبه وغيره لا يعرف بالأحاديث المسندة" (Al-Jurjani, 1988)؛ ولا يبدو من كلام ابن النديم أنه يوثقه، فقد قال: "عبد المنعم بن إدريس بن سنان بن ابنة وهب بن منبه مات سنة ثمان وعشرين ومائتين، وبلغ فوق المائة السنة، وعمي آخر عمره وله من الكتب كتاب المبتدأ" (Ibn An-Nadim, 1978)؛ فليس في هذا الكلام ما يشبه التوثيق، وعدم قدح ابن النديم فيه لا يعني تعديله ووضعه في مصاف الثقات والعدول.

فألزمهما أئمتنا أن يكون القدر المشترك موجوداً بغير واحد من خصوصياته». (As-Subki, 1413H)

وأفحم ابن النَّدِيم في جملة بابية الحشوية أبا الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة، وبهذا الإقحام المتعمد يظهر ابن النَّدِيم نفسه معتزلياً حتى النخاع، فهو لم يكتب بتسمية الأشعري والقطان بالحشوية بل سماهما بابية الحشوية، وفي هذا ما فيه من حنق ونقمة عليهما لاعتزالهما أولاً ثم لنكوصهما عن الاعتزال ومنافحتهما عن عقائد ما يسميه الحشوية، فقد هاله صنيع هذين الرجلين من تدمير لعقائد المعتزلة، وتدشينهما بوابة كلامية مهيبة يلج منها المنافحون عن أصول السنّة، يمتلكون بضاعة كلامية وفلسفية لا يستهان بها، الأمر الذي كان المعتزلة يظهرون به على أهل الحديث ومن دار في فلحهم.

العوام والعامّة في الفهرست

استخدام ابن النَّدِيم للفظة العوام لا يختلف عن استخدامنا لها اليوم، فهم الدهماء والرعاع التي تتبع كل ناعق، كما في كتاب: مساوي العوام وأخبار السفلة الأغنام لأبي العنيسبي الصميري (Ibn An-Nadim, 1978)، وأثناء حديثه عن أبي معشر البلخي قال: ”وكان أولاً من أصحاب الحديث، ومنزله في الجانب الغربي بباب خراسان، وكان يضاغن الكندي ويغري به العامة!“ (Ibn An-Nadim, 1978)؛ إلا في موضع يشير فيه إلى أسماء كتب وضعها الشيعة، فحمد بن الجنيّد الإمامي له كتاب: معنى الإشارات إلى ما ينكره العوام وغيرهم من الأسباب (Ibn An-Nadim, 1978)، وفي موضعين، وهما الموضوعان اللذان عثر عليهما ابن حجر بحذاقته رحمه الله، أطلق صفة العامة على أهل السنة والخاصة على الشيعة فقال في ترجمة ابن أبي الثلج الكاتب: ”خاصي عامي، والتشيع أغلب عليه، وله رواية كثيرة من روايات العامة، وتصنيفات في هذا المعنى، وكان ديناً فاضلاً ورعاً“ (Ibn An-Nadim, 1978)، فاستعماله للفظتي الخاصة والعامّة واضح جلي، ومثل ذلك ورد في ترجمته لأبي النضر محمّد العياشي، حيث قال: ”ومما صنّفه من رواية العامّة كتاب سيرة أبي بكر، كتاب سيرة عمر، كتاب سيرة عثمان، كتاب سيرة معاوية، كتاب معيار الأخيار، كتاب الموضح“ (Ibn An-Nadim, 1978)، إلا أن هذا الاستخدام كان معروفاً عند المعتزلة، والشواهد الكثيرة تشير إلى اعتزال ابن النَّدِيم لا تشييعه.

الدين والد الإمام فخر الدين في كتاب غاية المرام في علم الكلام، وزعم أنه كان أبا يحيى بن سعيد القطان كبير المحدثين، وأنه دمر المعتزلة في مجلس المأمون... ونقل الحاكم في تاريخه عن ابن خزيمة أنه كان يعيب مذهب الكلابية، ويذكر عن أحمد بن حنبل أنه كان أشد الناس على عبد الله بن سعيد وأصحابه، وقول الضياء أنه كان أبا يحيى بن سعيد القطان غلط وإنما هو من توافق الاسمين والنسبة، وأخطأ صاحب معجم المؤلفين في هذه المسألة التي حيرت الذهبي نفسه من قبل، فقال إن القطان محدث، وليس بمحدث، وإنما تشابه اسمه ونسبه مع اسم ونسب القطان المحدث مجرد اتفاق كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله (Kahalal, n.d.)، وقول ابن النديم أنه من الحشوية يريد من يكون على طريق السلف في ترك التأويل للآيات والأحاديث المتعلقة بالصفات ويقال لهم المفوضة وعلى طريقته مشي الأشعري في كتاب الإبانة». (Al-Asqalani, 1986)

فالقطان، بتأييد من أقوال ابن حجر رحمه الله، شخص مختلف فيه، فالإمام أحمد كان شديداً عليه وعلي أصحابه، والإمام الذهبي يقول أن القطان يوافق آراء المعتزلة حيناً ويرد عليهم حيناً آخر، وبعض أصحابه لحق الأشعري (Az-Zahabi(a), 1993)، وقضية تفويضه لآيات الصفات موضع نزاع، فقد أول الأصبغين في « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » (Hadith. Muslim. Jil.8:#6921)، فقال: إنما هما نعمتان، واليد صفة للذات (Ibn Abi Ya'la, n.d)

وقد أنصف السبكي ابن النديم في طبقاته، فلم ينسبه إلى التشيع، وإنما نسبه إلى الاعتزال وذلك في معرض ترجمته لابن القطان، فقال: "أحد أئمة المتكلمين، وكلاب مثل خطاف لفظاً، ومعنى بضم الكاف وتشديد اللام لقب به لأنه كان لقوته في المناظرة يجتذب من يناظره كما يجتذب الكلاب الشيء". ثم ذكر كلام النجار عن التقاء القطان بالجنيد وأن ذلك محال فقد كان القطان في زمن ابن حنبل، ثم عقب: «وليس ما ذكره ابن النجار من شأنه ولا هو من أهل هذه الصناعة فماله ولها، وأما محمد بن إسحاق النديم فقد كان فيما أحسب معتزلياً، وله بعض المسيس بصناعة الكلام، وعباد بن سليمان من رءوس الاعتزال وإنما يذكر ما يذكره تشيعاً على ابن كلاب، وابن كلاب علي كل حال من أهل السنة ولا يقول هو ولا غيره ممن له أدنى تمييز إن كلام الله هو الله، إنما ابن كلاب مع أهل السنة في أن صفات الذات ليست هي الذات ولا غيرها ثم زاد هو وأبو العباس القلانسي على سائر أهل السنة فذهبوا إلى أن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر في الأزل لحدوث هذه الأمور وقدم الكلام النفسي، وإنما يتصف بذلك فيما لا يزال

فأما ركوب الإمام الشافعي الحمار ولبسه لباس المغنين فذلك أمر في عهدة الرواة وذمتهم وابن النديم ناقل عن الثلجي، والثلجي من فقهاء وقضاة الأحناف وعهد عنه حنق الأحناف الكلاسيكي على الشافعي والشافعية، قال عنه ابن حجر: "الفقيه الحنفي البغدادي اتهمه بن عدي بالوضع وكان ينال من الشافعي وأحمد" (Al-Asqalani,1986)، وابن النديم ناقل، ومن أسند فقد حمل. وأما تشييع الإمام الشافعي فهو من باب الانتصار لأهل البيت ليس إلا، وجرت عادة القوم في ذلك الزمان على وصف محبي آل البيت بالشيعة، في وقت لم تتأصل فيه بعد عقائد الشيعة وتوضح مدارسهم الكلامية والفقهية، وسيأتي بيان ذلك.

الحشوية في الفهرست

الحشوية مصطلح عام له معانٍ مختلفة، ولازم المشبهة، وهو اتجاه غنوصي نشأ في البصرة يفسر الآيات المتشابهة تفسيراً إسرائيلياً أو غنوصياً، وعند الشيعة: الحشوية هم أهل السنة والجماعة خاصة الفقهاء الأربعة لأنهم قالوا بحشو الكلام مثل أن النبي صلى الله عليه وسلم مات ولم يستخلف من يجمع الكلمة ويحفظ الدين (An-Nashar,2008). واستخدام ابن النديم للفظ الحشوية قد يكون عاماً لا يقصد به فرقة معينة، كما في قوله: "قال محمد بن إسحاق قرأت في كتاب وقع إلى قديم النسخ يشبه أن يكون من خزانة المأمون ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها والكتب المنزلة ومبلغها وأكثر الحشوية والعوام يصدقون به ويعتقدونه" (ابن النديم، ص 32)، فابن النديم هنا يتحدث عن معتقد العوام من الناس (شيعة كانوا أو سنة) في عدد الأنبياء والكتب المنزلة وما قيل في ذلك، ومجموع تلك الأقوال لم يثبت بطريق معتمد، وليس أصلاً في الدين حتى يثار حوله نزاع عقائدي، وما ورد في عددهم من باب الحشو فمن رواه فهو حشوي ومن اعتقده كان حشويًا كذلك!

وأما الحشوية كمصطلح كلامي فقد استخدمه ابن النديم في الفن الثالث من المقالة الخامسة بعنوان: أخبار العلماء وأسماء ما صنّفوه من الكتب ويحتوي على أخبار متكلمي المجبرة وبابية الحشوية وأسماء كتبهم (Ibn An-Nadim,1978)، ونعرض هنا عن الحديث عن المجبرة وشيخهم الحسين النجار الذي رفضه النظام المعتزلي فأهلكه، فسيان أسمائهم ابن النديم عواماً وحشوية أم لا، فهم شر من ذلك عندنا وعند ابن حجر نفسه رحمه الله تعالى!؛ وما يهمنا هنا هو الأسماء التي ذكرها ابن النديم في ثبت بابية الحشوية، وعلى رأسهم عبد الله بن كلاب القطان (Ibn An-Nadim,1978)، وقد أفرد له ابن حجر أسطراً في لسان الميزان، وبسط قوله في تشييع ابن النديم هناك، فقال: "أحد المتكلمين في أيام المأمون ذكره الخطيب ضياءً

كان ياقوت الرومي أول من ذكر الفهرست وصاحبه في تراجمه وذلك أمر يُحمد له، وكانت التراجم التي سبقته لابن خلكان وغيره قد أعرضت عن ذكر مآثره ابن النديم، وكان كذلك أول من وجه تهمة التشيع مرفقة بتهمة الاعتزال إلى ابن النديم دون تعليق، قال: ”كنيته أبو الفرج، وكنية أبيه أبو يعقوب، مصنف كتاب الفهرست الذي جود فيه، واستوعب استيعاباً يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه لجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب، وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه صنف في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وله من التصانيف: فهرست الكتب، كتاب التشبيهات. وكان شيعياً معتزلياً. (ياقوت، باب الميم)

وعثر ابن حجر على عبارات في الفهرست أولها بصورة تؤكد التهمة، ومن تلك التأويلات انبعثت موجة عداً لابن النديم لا يزال المرء يعثر على طرف منها على صفحات الإنترنت وغيرها. وثبت الزركلي في أعلامه هذه التهمة نقلاً عن ابن حجر: ”وكان معتزلياً متشيعاً، يدل كتابه على ذلك، فإنه كما يقول ابن حجر، يسمي أهل السنة (الحشوية)“. (Az-Zarkali,1980)

قال ابن حجر: ”ولما طالعت كتابه ظهر لي انه رافضي معتزلي فإنه يسمي أهل السنة الحشوية ويسمى الأشاعرة المجيرة ويسمى كل من لم يكن شيعياً عامياً وذكر في ترجمة الشافعي شيئاً مختلفاً ظاهر الافتراء، فمما في كتابه من الافتراء ومن عجائبه أنه وثق عبد المنعم بن إدريس والواقدي وإسحاق بن بشير وغيرهم من الكذابين وتكلم في محمد بن إسحاق وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الثقات“. (Al-Asqalani,1986)

ولعل ما أشار إليه ابن حجر هو: قال -هارون الرشيد- للشافعي ما حملك على الخروج مع اللهبي؟ قال أنا رجل أملقت وخرجت أضرب في البلاد طلباً للفضل فصحبته لذلك. فاستوهبه الفضل بن الربيع فوهبه، فأقام بمدينة السلام مدة فحدثنا محمد بن شجاع الثلجي قال: كان يمر بنا في زي المغنين! على حمار وعليه رداء محشا وشعره مجعد، قال ولزم محمد بن الحسن سنة حتى كتب كتبه. فحدثونا عن الربيع بن سليمان عن الشافعي قال كتبت عن محمد وقر جمل كتاباً، وكان الشافعي شديداً في التشيع وذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها، فقال له: خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: له ثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولتي إلى قوله، وحضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين، فقال: لا أتكلم في مجلس بحضرة أحدهم هم أحق بالكلام، ولهم الرياسة والفضل!! (Ibn An-Nadim,1978)

وشمة نقطة أخرى لها صلة بهفوات الوراقاة تجعلنا نقف حائرين أمام فرضية أن الوراقين عبثوا بالفهرست بعد ابن النديم، مسخرين صفحاته لدعايات مذهبية وطائفية خاصة وأن الكتاب لم يحفل به معاصروه ولا من يليهم إلى مجيء ياقوت الحموي (626هـ)، وكان ادعاء ياقوت بامتلاكه نسخة من الفهرست بخط ابن النديم سيخفف من غلواء هذا الافتراض لولا أن الشاغانى (650هـ) ادعى امتلاك نسخة بخط ابن النديم كذلك ممهداً بذلك لادعاءات أخرى، وإذا قبلنا بوجود نسختين بخطه بعد ما يزيد على قرن ونصف تنامت على نحو تدريجي فرضية أن الفهرست تعرض للقرصنة وإهمال الوراقين، وهفوات الوراقين عديدة مثالها أن ابن النديم لما ذكر مصعب بن عبد الله الزبيرى قال: «حوارى نزل بغداد»- (Ibn An-Nadim, 1978)، وربما جاءت كلمة حوارى بناء على وصف نبوى لجده الكبير الزبير بن العوام بأنه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الجهمى الذى يأتي بعده بصفحة واحدة يصفه ابن النديم كذلك بأنه: «حوارى دخل العراق»، وصفة حوارى لا تليق بالجهمى مطلقاً، لأن ابن النديم يصفه بالبذيء الذى ينال من أجلاء القوم، فقد صدف أن شتم عمر وعثمان فلما نصحه أحد الهاشميين بالكف عن ذلك بدأ يشتم العباس بن عبد المطلب، ولم تهدأ سلطاة لسانه حتى رفع أمره إلى المتوكل وجُلد مائة جلدة (Ibn An-Nadim, 1978)، وربما كانت الكلمة المقصودة هي: «وهو أخبارى» أي من رواة القصص والأخبار، وهذا الخطأ فى الغالب من هفوات بعض النساخ.

التحقيق العلمى لتشيع ابن النديم

لم يكثر علماء القرن الرابع الهجرى بعمل ابن النديم الضخم، ربما لعدم وضوح القيمة العلمى لكتابه، فنظروا إليه على أنه مجرد إحصاء للكتب والمؤلفات، وهذا الإحصاء تم بنحو ما فى الكتب الأخرى المعنية بالأدب والتراجم، ولما ظهرت القيمة العلمى المدهشة للفهرست ارتبط الإعجاب بالكتاب بتوجيه تهمة التشيع إلى ابن النديم، فلم يحفل به أهل السنة كثيراً، وفى الصفحات الآتية سيتم عرض جوانب هذه التهمة ومناقشتها فى ضوء ما يقدمه ابن النديم نفسه من إضاءات فى الفهرست.

إنَّ ما يجعلنا مستيقنين من بطلان تهمة التشيع الموجهة إلى ابن النديم من قبل ياقوت الحموي أو ابن حجر العسقلانى أسباب بعضها صريح مبعر فى ثنايا الفهرست، وبعضها الآخر يتعلق بطبيعة التواصل الاجتماعى والسياسى الذى شاب العلاقة بين معسكرى أهل السنة والشيعه فى ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا، وهى بدورها مبسوطه فى ثنايا الفهرست.

النديم قد وفي بوعده: ”فأما كتبه على مذهب الشيعة فنحن نذكرها في موضعها إن شاء الله“ (Ibn An-Nadim, 1978) ، ولكنه لم يذكره في الفن المخصص لمؤلفات الشيعة الإمامية، ولا للمنثورات اللاحقة في فن الصوفية والزهاد .

ويبدو أن موسوعية علماء العصر العباسي ولدت باستمرار ثغرات في الفهرست، فالرمانى لغوي ونحوي كبير، إضافة إلى كونه معتزلياً صاحب تصانيف في علم الكلام، وقد ذكره ابن النديم في طبقات المعتزلة وانقطعت عبارته قبل ذكر مؤلفات الرمانى، وظن ابن النديم أنه ”قد مضى ذكر أبي الحسن، يعني علي بن عيسى الرمانى، في مقالة النحويين واللغويين“ (Ibn An-Nadim, 1978) ، وبمراجعة مقالة النحويين كاملة لم نعثر على الرمانى ولا على مؤلفاته!! . وكثيراً ما تنقطع أخبار بعض التراجم قبل ذكر مؤلفاتهم، مع العلم أن ذكر مدوناتهم هو الأهم، وربما لم يجد ابن النديم فرصة حتى لإكمال بعض الأسماء كالرمذي الكبير، الذي لا نعرف من هو بالضبط، ناهيك عن معرفة مؤلفاته . (Ibn An-Nadim, 1978)

وإضافة إلى الثغرات الناجمة عن سمة الموسوعية في أعمال مصنفى القرون الأولى تظهر منافذ أخرى تقوض ببيان النسقية في الفهرست، وتورث فيه نوعاً من عدم الانسجام، فالمقالة الثالثة المخصصة أصلاً لكتب الأخباريين والنسابين وأصحاب السير والأحداث، تختلط فيها كتب السير والتاريخ بكتب الأدب والنقد الشعري، وعلى الرغم من أن ابن النديم التفت ببدايته المعروفة إلى هذه النقطة فجعل عنوان الفن الثالث من المقالة الثالثة: أخبار الندماء والجلساء والأدباء والمغنين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم، فأدخل الأدباء من باب الاستدراك، إلا أن تخريجه لا يحظى بوافر القبول، لأن المقالة الرابعة مخصصة لكتب الشعراء والشعراء، وكان من حق أديب كبير كالأمدي أن يوضع هناك في قائمة نقاد الشعر لوفرة تصانيفه في هذا الباب، مثل: كتب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء، كتاب معاني شعر البحترى، كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى، كتاب الرد على علي بن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام، كتاب إصلاح ما في معيار الشعر لابن طباطبا... وغيرها (Ibn An-Nadim, 1978)، لا أن يوضع إلى جانب أبي حشيشة الطنبوري وابن الشاه الظاهري صاحب المؤلفات الفكاهية من قبيل: أخبار الغلمان، فخر المشط على المرأة، كتاب الخبز والزيتون، كتاب حرب اللحم والسمك، كتب البغاء ولذاته...، وينطبق هذا إلى حد بعيد على جعفر بن حمدان الموصلي صاحب التصانيف النقدية (Ibn An-Nadim, 1978)، مثل: كتاب الباهر في الاختيار من أشعار المحدثين، كتاب الشعر والشعراء الكبير، كتاب السرقات، وهو فضلاً عن ذلك شاعر، وحقه أن يوضع جنباً إلى جنب مع الأمدي في المقالة الرابعة .

والعباد والمتصوفة المتكلمين على الخطرات والوساوس يفتقر إلى النسقية العلمية، فيعد أن ذكر بعض الصوفية خصص مبحثاً عن الإسماعيلية، وربما نفترض أن ابن النديم عدَّ الإسماعيلية من المتكلمين على الخطرات والوساوس، ويصح هذا الوصف على معظم الفرق الباطنية، إلا أنه وبعد فراغه من الحكايات التي رويت عن نشأة الإسماعيلية وكتّابها عاد من جديد إلى الصوفية وأفرد فقرات طويلة عن الحلاج وشعبذاته وطواسينه، ولعل هذا يُفسَّر بأن ابن النديم عدَّ الحلاج من الباطنية وهذا شأنه في تقييم الفرق والتيارات الباطنية، ولكن ما لا يمكن تفسيره بعد ذلك هو عودته إلى الحديث عن الزيدية والإمامية، وكان من المفروض أنه فرغ من الحديث عنهما في الفن الثاني. (Ibn An-Nadim,1978)

كما أن مشاق الجمع الببليوغرافي وتأثيرها في انعدام النسقية، وصعوبة تفریق الكتب المؤلفة في حقول معرفية مختلفة لمؤلف واحد على المقالات والفنون الموضوعية أصلاً لهذه الحقول تظهر بين الحين والآخر، لأن ابن النديم معني بالدرجة الأولى بوضع فهراس شاملة للمدونات لا للمؤلفين، ومعلوم أن أكثر علماء العصر العباسي كانوا موسوعيين يكتبون في فنون شتى، فبشرى المعتمر على سبيل المثال لا الحصر مذكور في الفن الثاني من المقالة الرابعة، ووعده ابن النديم بأنه سيستقصي أخباره في المقالة الخامسة (Ibn An-Nadim,1978)، وهو ما لم يفعله لأنه ببساطة استقصى أخباره في الموضوع الأول، ويتكرر الخطأ نفسه مع ابن عبد الملك الزيات المذكور في الفن الثاني من المقالة الثالثة، إذ ذكر ابن النديم شيئاً من أخباره وأضاف: ”نحن نستقصي خبره في غير هذا الموضوع“ (Ibn An-Nadim,1978)، ويبدو أنه اكتفى بما ذكره، كون الزيات من أصحاب الرسائل والدواوين وكان وزيراً لثلاثة خلفاء عباسيين، ولو استقصى أخباره لفعل في المقالة الرابعة المخصصة للشعراء لأن الزيات شاعر كذلك، إلا أننا لا نجد له ذكراً هناك. ويندرج جعفر بن حمدان الموصلي في طائفة ابن المعتمر والزيات، إذ ذكره ابن النديم في الفن الثالث من المقالة الثالثة، وقال: ”متفقه على مذهب الشافعي... وله في الفقه عدة كتب نذكرها عند ذكرنا الفقهاء“ (Ibn An-Nadim,1978)، ونسي أمره بعد ذلك، ولم يذكره في الفن الثالث من المقالة السادسة المخصصة لفقهاء الشافعية.

وفضلاً عن السهو والنسيان الغالب على الأعمال الكبيرة والجليلة يلاحظ شيء من الخلط كذلك في الفهرست، فمحمَّد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن أحمد الكاتب شافعي من جلة الشافعيين على حد قول ابن النديم، ولكن ”له كتب على مذهب الشيعة!“، ولا ندري كيف تم له ذلك؟ هل تشيع بعد أن كان شافعيًا، أم ألَّف كتاباً في الفقه المقارن؟ وربما وجدنا إجابة عن هذه التساؤلات لو كان ابن

فن من الفنون العلمية أو الأدبية، وبعد أن تكسده لديه كم هائل من العناوين والأسماء في عقود من الزمن جلس في أواخر أيامه ليعيد ترتيبها وتصنيفها في ضوء تجربته الطويلة، ومعارفه الموسوعية ويضع اللبنة الأولى في بناء التصنيف الببليوغرافي للعلوم (Dodge,1970).

ويصح هذا الافتراض إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود كتاب سابق على الفهرست يعنى بتراجم الكتب والمؤلفين سوى ما وضعه المحدثون من تراجم لرجال الحديث، التراجم التي أوحى لابن النديم وهو ينسق قوائم كتبه بين الحين والآخر أن يضع ترجمة للكتب، وبدون هذا الافتراض لا بد للإنسان عاش في بغداد في القرن الرابع الهجري، مهما كانت مرتبته العلمية، يضع في مخيلته ابتداءً تأليف عمل موسوعي لا سابق له كالفهرست وفي عصر خلا من آليات عمل مبرمج وفهارس جامعة تعينه، أن يكون عميقاً به لوثة من جنون!

ويؤكد ابن النديم هذه الفرضية من خلال بعض الإشارات التي تدل دلالة واضحة على حرصه في الإبقاء على معلومات قديمة على الرغم من عثوره على الجديد منها، فهو على سبيل المثال يقول في ترجمته للمرزباني، الذي هو أحد أساتذة ابن النديم، أنه: ”يحيا إلى وقتنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ونسأل الله العافية والبقاء بمنه وكرمه، وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة رحمه الله!“ (Ibn An-Nadim,1978). وتدل عبارته الثانية على إضافة تمت بعد سنة أو ما يقاربها إلى الصفحة التي خصصها للمرزباني في قوائمه، وقد كان بإمكانه حذف التاريخ الأول طالما أن المنية أدركت المرزباني، إلا أن إبقائها يدل على مدى التوقير الذي يكنه ابن النديم للمرزباني من جهة، ويدل على منهجه العلمي في التصنيف وطريقته في التأليف ودقته في إيراد المعلومات من جهة ثانية، وهذه الدقة في إبراز المعلومات لا تخفى فهو عندما يذكر مجموعة من الشعراء ومقادير حجم شعر كل منهم، يضيف: ”إذا قلنا أن شعر فلان عشر ورقات فإنما عيننا بالورقة أن تكون سليمانية، ومقدار ما فيها عشرون سطراً“ (Ibn An-Nadim,1978).

ومما يؤكد منهج ابن النديم في الجمع والتأليف الذي امتد لسنوات متطاولة ما نجده في الفهرست بين الحين والآخر من انعدام النسقية واختلاط التراجم والكتب، فالمقالة الخامسة على سبيل المثال تدور بصورة عامة عن الفرق من متكلمين ومعتزلة ومرجئة، والشيعية الإمامية والزيدية، والمجبرة والحشوية، والخوارج، والصوفية، والمقالة بهذه الصورة تبدو فصلاً عن الفرق الإسلامية والمؤلفات التي دونها أهل كل فريق، ولكن الفن الخامس من هذه المقالة والمعقود عن أخبار السياح والزهاد

على وجه التقريب كلُّ الأدوار الثقافية في حضارة العصر الوسيط (العصر الذهبي للإسلام). ففي الفهرست نجد عرضاً دقيقاً للثقافة اليونانية بفنونها المختلفة، وتحليلاً عميقاً للديانات الهندوسية في الهند، ومعلومات نادرة عن الزرداشتية والثقافة الإيرانية القديمة، فضلاً عن تفصيلات ومعارف عن الثقافتين الرومانية والسريانية. وقبل هذا وذاك، فهو سجل دقيق للعلوم والمعارف الإسلامية منذ نشأتها وإلى قبيل وفاته في القرن الرابع الهجري.

ويعنى هذا البحث بتهمة التشيع التي وجهت إلى ابن النديم وحالت دون اعتلاء هذا الكتاب لمكانته العلمية طوال التاريخ، اعتماداً على ما ورد في كتاب الفهرست نفسه من إشارات منهجية وتاريخية وثقافية تصلح بمجموعها أن تشكل رداً علمياً مقنعاً على الدلائل النسقية الواردة في الأسطر القليلة، المضغوطة و(المدمجة) لابن حجر رحمه الله تعالى في بيان تشيع صاحب الفهرست.

قراءة في آليات الفهرسة في الفهرست

يفترض البروفيسور بيارد أن مشروع ابن النديم الضخم من حيث المنهج وآلية العمل بدأ كقوائم يضعها عادة تجار الكتب لمكتباتهم (Dodge, 1970)، وقد اكتسب ابن النديم خبرة وافية في التعامل مع الوراقين والمخطوطات من خلال تفويض والده له ولإخوته في اقتناء وشراء المخطوطات واستنساخها، واكتسب بصورة طبيعية عقلية حسابية إضافة إلى العلوم المتنوعة التي قرأها من خلال عمليات الاستنساخ، وكلما كانت المكتبة أكبر فإن صناعة القوائم سرعان ما تتخذ صيغة حسابية وفنية تتجاوز هموم التاجر الحاذق، ولأن ابن النديم لم يكن وراقاً وتاجر كتب وحسب، بل كان قارئاً فاحصاً ومدققاً، يمتلك حصيلة معرفية في الدراسات الفلسفية والمنطقية اكتسبها من دراسته على أبي سعيد السيرافي وحسن بن سوار وأبي أحمد الحسين بن إسحق ويونس القس، فإن هذه القوائم سرعان ما تحولت إلى مشروع موسوعي، فضبط ابن النديم قوائمه لتنصب كل قائمة منها في خانة من العلوم والمعارف، وجمع أسماء الكتب التي استنسخها أو امتلكها أو تحاور عنها مع العلماء والشعراء والطنبوريين الذين كانوا يرتادون متجره وجمع أخبار مؤلفيها يشهد لذلك ما ذكره من الشعراء المجودين والمغمورين والسراق، وأخبار المغنيين والطنبوريين من أمثال (أبو حشيشة الطنبوري) الذي رأى ابن النديم مخطوطة كتابه (المغني المجيد) ويقول في حديثه عن المخرفين أنه رأى كتاب ألف ليلة وليلة (هزار أفسانه) بتمامه دفعات، ووصفه بأنه كتاب غث بارد الحديث (Ibn An-Nadim, 1978)، وساعدته رحلاته إلى الموصل والكوفة والبصرة وربما حلب ودمشق على إثراء القوائم التي سرعان ما تحولت إلى مقالات، وكل مقالة منها تعني بكتب

to investigate the charge of sectarianism through several connections. Some of them related to the nature of communication between Sunnite and Shiite, others based on anatomize terms and conception that widely spread in Shiite literature and Ibn Annadim utilized them in his book like (Awam, Hashawiyah). Methodology of Annadim shows celebrating of some companions and scholars that Shiite never do, at the same time his tendency to the doctrine of Mu'tazilite is unmistakable.

Keywords: tashayyo', warraq, hashawiyah, al-Jarh wal Ta'dil.

تقديم

أبو الفرج محمد بن إسحق محمد بن إسحق النديم الوراق (ت385هـ) (Al-Asqalani, 1986)، مؤلف كتاب الفهرست، وعُرف بالنديم لأنه كان من ندماء البلاط، كان والده يُدعى بالوراق، والوراق هو النَّسَاح. ويُسلم معظم النُّقاد والباحثين أنَّ الأب والابن كليهما كان يُلقب بالنديم (أحد أفراد حاشية البلاط)، وتاريخ ميلاده غير معلوم، ولكن لا يمكن أن يتجاوز سنة 935م بكثير، وعلى الأرجح يسبقها بزمن. ففي الفصل السادس، القسم الثامن، يخبرنا النديم صاحب الفهرست عن لقائه بعالم يُدعى محمد بن عبد الله البرذعي الذي شرح عقائد المعتزلة، وأعطاه قائمة بأسماء كتبه في الشريعة والقانون، فإذا كان النديم ناضجاً بالقدر الذي يدفعه إلى الاهتمام بعقائد فرقة كلامية متحررة، ويكتب حول التشريع فلا بُدَّ أن يكون في ربيعهِ السادس عشر على أقل تقدير، بل ربما أكبر بعدة أعوام، إذ تمَّ هذا اللقاء سنة 340هـ (951/952م)، وهذا دليل على أنَّ مولد النديم كان قريباً من سنة 935م. وبناءً على ذلك يتأكد لنا أنَّ مولده كان في ظل خلافة المقتدر (908-932م)، أو خلافة القادر (932-934م)، وباحتمال أوهى في خلافة الرضا (934-940م). (Dodge, 1970).

أنجز غوستاف فلوجل سنة 1871م عملاً متقناً وبارعاً من خلال نشره النسخة العربية لكتاب الفهرست، ولكن، ولسوء الحظ كما يقول مترجم الفهرست، افتقر عمله العلمي إلى نُسَخ مخطوطة رئيسية ومعتمدة من الفهرست، وكانت الطبوعات العربية المتتالية لكتاب الفهرست مليئة بالاطعاء، ولا زالت، ولا مفر من التسليم اليوم بأن ترجمة البروفيسور بيارد هي المرجع الأكثر مصداقية لكتاب الفهرست، فقد جمع مخطوطات الكتاب المتعددة وقارن بينها، وصحح أخطاء النساخ، وكمل السقط الوفير، وصحح وعدل بالاعتماد على فريق علمي كبير من المعنيين بالمخطوطات من الغربيين والمسلمين.

ويحتل كتاب الفهرست لابن النديم في الدورة الحضارية لعملية تصنيف العلوم موقِعاً لامعاً، حيث وصف به: سجّل للحضارات (Dodge, 1970)، وأنه استوعب

تحقيق المقال في تشيع ابن النديم الوراق

Ibnu An-Nadim Al-Warraq & Accusation of Shiite Sectarianism: A Scientific Investigation

Abd. Rahman Obeid Hussien¹
Universiti Sains Islam Malaysia

الملخص

كان المستشرق الألماني غوستاف فلوجل (1802-1870م) أول من حقق فهرست ابن النديم وعني به عناية فائقة وأظهر قيمته العلمية للباحثين، وتلاه البروفيسور بيارد دودج بتحقيق متقن وترجمة للفهرست إلى الإنجليزية استغرق العمل فيها سنوات واشترك في إنجاز التحقيق والترجمة لفيف من العلماء والباحثين، حتى غدت الترجمة الإنجليزية مهيمنة على النسخة العربية نفسها للفهرست، لما فيها من تجاوز لعثرات الوراقين، ومساوى المخطوطات التالفة. ولم يحظ الفهرست قديماً باهتمام العلماء، لاقتران اسم ابن النديم بالتشيع، وتعنى هذه الدراسة بتحقيق هذه التهمة من خلال عدة محاور، بعضها منبثق عن طبيعة العلاقات بين معسكري أهل السنة وطائفة الشيعة، وبعضها الآخر قائم على الأسس العلمية التي وضعها علماء الحديث في الرواية، وبعضها الآخر يعالج مصطلحات ومفاهيم راجت في كتب الشيعة وتلقفها ابن النديم في الفهرست كالحشوية والعوام والعامية. وكان منهج ابن النديم في الجرح والتعديل، وثنائوه على الصحابة وتوثيقه لأعلام سنية بينة على عدم تشيعه، وبالمقابل لا يخفي على أهل النظر طريقتة الكلامية المتقاطعة في كثير من جزئياتها مع طرق واستدلالات المعتزلة. كلمات مفتاحية: تشيع، الوراق، الحشوية، الجرح والتعديل.

Abstract

The German orientalist Gustav Flügel (1802-1870) was the first editor of *AlFihrist* of Ibn Annadim who revealed the priceless value of this book for all researchers. Professor Bayard Dodge was the next to re-edit *Alfihrist* and translate it to English assisted with remarkable specialists. His translation overrun errors of scripts copiers and defects of damaged manuscripts, and dominated even the original Arabic copy!. The earliest Muslim scholars did not pay much attention to *alfihrist* because of sectarian accusations that classified Ibn Annadim as a Shiite. Therefore, this study is concerned

¹ Corresponding author : Abd Rahman Obeid Hussien,Universiti Sains Islam Malaysia, e-mail: drabraham@usim.edu.my